أسلوب التشبيه في آيات الجنة والنار

أ.م.د. جاسم عبد الواحد راهي

الباحث باسم شعلان خضير

المقدمة:

شغلَ القرآنُ الكريمُ المسلمين، منذ نزولِه وإلى الآن، وأغنى حياتهم الثقافية؛ بالدراسات التي تناولته بالتفسير، والتحليل والبيان، إذ تعرّضت لبلاغته وفنونه بيانه، وعلى أثر ذلك تشكلت علوم متعددة كعلم النحو والبلاغة وغيرها، وقد سعت تلك العلوم عبر تنظيمها، وتقنيتها سعياً لترجمة النصّ القرآني على أرض الواقع، بغية إقامة مجتمع بطابع إنساني، يفيد من قيم القرآن الكريم في مختلف مفاصل الحياة الأنسان الدنيوية والأخروية.

ويرتكز الخطاب القرآنيّ ، على ألوان البيان في آيات الجنة والنار الموظّفة توظيفاً استراتيجيّاً، بشكل يمنح الخطاب فوق خصوصيّته ، تميّزاً مضاعفاً، وكما نعلم فقد تحدّى التنزيل العرب ، بأفضل ما عندهم ، وأكثر ما يجيدونه، ويبرعون به، وأغنى بيانهم ، وبلاغتهم ، وفصاحتهم ، وفي هذا المقام ((يصحّ لنا تحديد التراث الإنساني للعرب بالبيان ، فالبيان كلّ شيء في حياتهم ، وكلّ شيء بعد مماتهم، به يتبارون، وعليه يثيبون ، وفيه يتمايزون ، وهبط القرآن الكريم بين ظهرانيهم، فكان ثروة بيانيّة لا تنفد، ومعيناً بلاغيّاً لا ينضب))[1].

وفي هذا البحث، سنحاول تتبّع الأداء البيانيّ في آيات الجنة والنار، عبر اقتفاء أثر البنى التشبيهيّة، ودراستها وتحليلها، وبيان جماليّاتها، وما أدّته من وظائف فنيّة، ودينيّة على ثلاثة مباحث.

بهدف تسليط الضوء على هذه الانواع التشبيهية، ودراسة أدائِها البيانيّ، وتوضيح آليّة عملها، ودورها في إثراء المعنى، وكيفيّة توظيفها في آيات الجنة والنار في ضوء المنهج الوصفيّ التحليليّ.

المبحث الأول: التشبيه البليغ:

قبل الدخول في صميم الموضوع لا بد لنا من تعريف التشبيه من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية.

فالتشبيه لغةً:

ورد في لسان العرب بأنّ: الشِّبه والشَّبَه والشَّبيه: المِثلُ، وأشبهَ الشيءُ الشيءَ: ماثَلَهُ، ويُقال: شبّهتُ هذا بهذا، وأشبهَ فلان فلاناً. والشِّبْهُ والشَّبَه: النحاس يصبغ فيصفرّ، وسمّي النحاس به لأنّه إذا فعل به أشبه الذهب بلونه، والتشبيه مصدر من شبّهَ[٢] .

إذاً فالتشبيه في اللغة: هو التمثيل .

أمّا اصطلاحاً فإنه: الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى أو أكثر بأداة ملفوظة أو مضمرة[٣] .

وابن رشيق القيرواني يعرّف التشبيه أنّه: (وصف الشيء بما يقاربه و يشاكله)[٤].

إنّ من أبرز أساليب البيان وأجملها التشبيه، ويعود ذلك إلى ما يحمله التشبيه من ميزات، فهو يضفي على الصورة الموظّف فيها من طاقة تعبيرية وتأثيرية، وقوة في

الأداء تؤطّر بجماليّة ترخي سدولها على المعنى، فتضاعف التأثير وتؤدّي الصورة حينئذ وظيفتها المنوطة بها.

ويحتلّ التشبيه بأنواعه مساحةً عظيمة في القرآن الكريم، وما يهمّنا في هذا المقام التشبيه الموظّف في آيات الجنّة والنار وهو مدار البحث .

والتشبيه البليغ لغة : هو مأخوذ من بلغ بمعنى الوصول إلى الشيء ، إذ تقول بلغت المكان إذا وصلت إليه[٥] .

وعرّفه أهل الاصطلاح بأنه :(ماحذفت فيه اداة التشبيه ووجه الشبه)[٦] ، ويرجع سبب تسميته بالبليغ لذكره طرفي التشبيه فقط حتى أنّه يوهم أتحادهما وعدم تفاضلهما لذلك يعلو المشبه إلى مستوى المشبه به وأن هذه المبالغة تضفي قوة في التشبيه[٧] .

وقد جاء هذا النوع من التشبيه في قوله عزّ وجل: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾. (آل عمران:١٠).

في التشبيه البليغ (هم وقود النار) يشبّه عزّ وجل الذين كفروا، وهم طرف التشبيه الأول (المشبه) بوقود النار وهو الطرف الثاني (المشبه به). يقوّي التشبيه البليغ الدلالة المقصودة، فيوحّد التنزيل بين طرفيّ التشبيه على وجه الحقيقة. يدعم المعنى غياب أيّ فاصل لغويّ كأداة التشبيه، والتأكيد عبر العلاقة الإسناديّة على بداهة الحكم بأنّ المشبّه هو عينه المشبه به؛ فهم وقود النار. ولا يخفى ما للصورة من عظيم الأثر في نفس المتلقي، وذلك لركنها الحسيّ الذي نقل الصورة عبر تقنيّتها الحسيّة، بشقيها البصريّ والسمعيّ، إضافة إلى اللمس. ولك كمتلقي أن تحسّ ألسنة

اللهب تلفح وجهك، وتسمع للنار التي توقد بالبشر سعيراً، وللمعذّبين صراخاً مهولاً، وترى كيف يطعمون النار من أجسادهم، فتعلو قامتها، ويشتدّ أوارها. كلّ هذا يؤدّي مهمّة الصورة في تنفير القارئ، وتحذيره من مصيره المحتوم إنْ هو عصا كلمة الله سبحانه، وكفر بنعمته.

وهنا تكمن قيمة التشبيه، ووظيفته الفنيّة والدينيّة، إذ حقّق جماليّته عبر عنصر التخييل، واستحضار مشهد مألوف ومعتاد، وهو إشعال النار، وتزويدها بالوقود لتتوقّد وتستعر لغايات بشريّة كالتدفئة والطهو الخ. يأتي المشهد هنا مزوّداً بعنصر جديد يضفي على المعنى الرهبة، ويقذف الرعب والخشية في النفس، وذلك حين تتخيل أن وقود النار هنا هم البشر أنفسهم. وهذا أدعى للتأثير، ولتثبيت المعنى، وتحقيق الانفعاليّة المطلوبة. ونحن نعلم أنّ التشبيه الوصف بأنّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة تشبيه، ناب منابه أو لم ينب. ويصحّ تشبيه الشيء بالشيء جملة، وإن شابهه من وجه واحد[٨] ، والتشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى[٩]، من هنا نلمس أهميّة توظيف التشبيه في الآيات بغرض الجمع بين طرفي التشبيه في الحكم مما يقوي المعنى المراد تثبيته في ذهن المخيلة.

وهنا يحضرنا ما قاله ابن الأثير عن التشبيه: إنّك إذا مثّلت الشيء بالشيء فإنّما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طريق الترغيب فيه أو التنفير عنه، ألا ترى أنّك إذا شبّهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها؟ وكذلك إذا شبّهها

بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها؟[١٠].

ومن التشبيه في خطاب الجنة والنار قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:١٥١).

في هذا التشبيه البليغ يجعل النار مأوى، ومثوى للظالمين. يشبّه النار بالمأوى إنّ التنافر الدلاليّ بين ما توحي به كلمة مأوى ومثوى (المشبه به) من أمان واستقرار وطمأنينة، وبين ما تحيل عليه النار (المشبه) من العذاب، يمنح التشبيه طاقة إيحائيّة، ويراكم الدلالة، فكما ركن الظالمون إلى ضلالهم، واستقروا به في الدنيا ستكون النار مثواهم، ومستقرّهم في الآخرة، جزاء لما اقترفت أيديهم من آثام. تباعد الحقول الدلالية لطرفيّ التشبيه هزّ أفق التوقّع لدى المتلقي، إذ تخلخلت الروابط اللغويّة العاديّة، وانزاحت الحقول المتباعدة، لتنصهر في أتون التشبيه، وتخرج بحلّة جديدة، ومعان جديدة تحقّق وظيفتها من وعظ، وترهيب، وتحذير، واستهزاء في آن. فضلاً عن الجماليّة التي يضفيها الانزياح والجمع بين المتباعدات في بؤرة دلاليّة واحدة تحيل على فكرة رئيسة، ومقصد أساس وهو معنى الاستقرار والخلود.

وما كلّ هذا البيان الموظّف خير توظيف إلا آية إعجاز تؤكد مصدره الرباني فالنبي محمد (ص) أعظم آياته هو القرآن الكريم المعجز[١١].

إنّ إحساسنا بالجمال إنما يرجع إلى ما يحدث في دوافعنا النفسية، وما يطوى فيها من مشاعر وذكريات، ونوازع ورغبات ضرباً من النظام أو التوازن أو الانسجام[١٢]. وهذا ما يستهدفه الخطاب البياني القرآني فينا.

يستعين الخطاب القرآني بالآلية التكراريّة، فيعيد هذا التركيب الجديد (مأواهم النار) (مثواهم النار) في مواضع عدّة بغية تذكير المتلقي، وترسيخ الفكرة في ذهنه، وغرسها في وعيه ولاوعيه. ليؤكّد الخطاب الإلهيّ يقينيّة مصير الكفّار، والظالمين، والمشركين وهو النار بوصفها مستقرّهم إلى الأبد، ومثواهم المعدّ لهم، والمأوى الذي سيضمّهم إلى أبد الآبدين .

وهذا التشبيه يتكرّر في موضع آخر ، هو قولة تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٢٤).

مما يدلّ على إصرار الخطاب القرآنيّ على تذكير العاصين، والجاحدين، والمشككين على حد سواء بأنّ هذا مصيرهم (وقود لنار جهنم)، وذلك إن لم يتعظوا، ويتنبّهوا ، ويتبعوا سبيل الهداية، ويطيعوا ما أمرهم الله به.

المبحث الثاني: التشبيه التمثيلي:

والتمثيل لغة هو من مثل وفيه دلالة على مناظرة الشيء للشيء وهذا مثل هذا أيّ نظيره ، والمثل والمثال كلها بمعنى واحد ، ومثيل الشيء شبيهه[١٣] .

أمّا اصطلاحاً :فقد عرّفه السكاكي :(هو ماكان وجه الشبه فيه وصفاً منتزعاً من امور متعددة حسية كانت او معنوية)[١٤] .

وقد ورد هذا النوع من التشبيه في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

في التشبيه التمثيليّ السابق يشبّه الله عزّ وجل صورة بصورة؛ صورة الذين ينفقون أموالهم يبغون مرضاة الله والتثبيت بصورة أخرى هي بستان (جنّة) في (ربوة) والربوة مكان مرتفع كثيف التراب، وهذا يزيد من جودة التربة للزراعة، وحسن إنتاجها؛ هذه الجنة أمطرها الله سبحانه وابلاً ، فأعطت ثمارها ضعفين مقارنة مع سواها.

إنّ فاعليّة الصورة الفنيّة تأتي من قدرتها على الجمع بين الحقائق المتباعدة، واستحضار العلاقات الطريفة بين الأشياء، وبقدر طرافة هذه العلاقات تتحقّق فاعليّة الصورة(١٥) .

وهذا ما نلمسه في الصورة السابقة؛ فالتشبيه جمع بين أمرين متباعدين في علاقة هي حقّاً طريفة. تحقّق الغاية في تثبيت الأثر في نفس المتلقي، وتتجذّر أركانها في خياله، لتعمّق إدراكه لها، وانفعاله معها. هذا التشبيه التمثيليّ المركّب جمع بين مشهدين المشترك بينهما كثير وعميق. فالمؤمنون الذين ينفقون أموالهم لوجهه الكريم، كأنّما هم فلاحون، زرعوا بذورهم في تربة صالحة هي إيمانهم، ورغبتهم في التثبيت، ونيل رضا الله تعالى، وأولئك زرعهم هذا يباركه الله بوابل يضاعف إنتاجه ضعفين، ويردّ لهم ما قدموه في سبيله أضعافاً.

من التشبيه التمثيليّ في ايات الجنة والنارجاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة:١٧).

تشبيه تمثيليّ يشبّه فيه حال المنافقين وقد أظهروا الإيمان والتسليم لحماية أنفسهم وأموالهم دون أن يؤمنوا حقاً، فأضمروا الشرك بحال من حلّ عليه الليل في صحراء، فأوقد ناراً أنارت له ورأى ما حوله، واستدفأ بها ثمّ انطفأت ناره، فخيّم عليه الظلام، وعاد إلى حالته الأولى .

والنبر هنا على حاسة البصر في تكوين صور بانوراميّة لما حولها، وذلك لمركزيّة هذه الحاسة و((نظراً لاعتماد الذاكرة الشعريّة عند الشعراء على العين الباصرة في التقاط الصور وتكوينها وتركيبها أكثر من اعتمادها على بقيّة الحواس كما أنّ حاسة البصر تأتي في مقدمة الحواس المقدّرة للجمال))[١٦].

والأمر عينه يوظّف هنا في الخطاب القرآنيّ الجليل. فالعين لها مركزيّتها بين الحواس، واستثمارها في الصورة الفنيّة من الاستراتيجيات الفعّالة في تقوية الأداء الفنيّ للصورة المحمّلة في هذا الخطاب بوظيفة محدّدة فنيّاً ودينيّاً.

ويتوفّر التشبيه التمثيليّ على أهمّ عناصر الصورة الفنيّة، وأكثرها غنى، وهو عنصر الحركة. والحركة من أهمّ مزايا التشبيه عامةً، وهي ((من بديع التشبيهات وجليلها لأنّ التقاطها، وهي جادة في حركتها، واضطرابها دليل المقدرة، والوعي، وقوة الملاحظة، ثم تصويرها وهي تتحرك، أعني المحافظة على هذه الحركيّة الحيّة الباعثة للنفس التي تنفي عنها ملل الجمود))[١٧].

لقد كانت الأمثال دائرة بين الأمم خاصةً عند العرب بل كان استعمالها يعدّ من شؤون الفصاحة والبلاغة، وقد نهج القرآن الكريم في استعمال الأمثال لغرض تفهيم المخاطبين، والتكلّم معهم بلسانهم المتعارف بينهم، وجلب قلوبهم إلى غير ذلك من

الحكم والفوائد. وقد اهتمّ بها القرآن الكريم اهتماماً كبيراً فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلْنَّاْسِ فِيْ هَذَاْ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الروم:٥٨).

والمراد باستيقاد النار في قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله) هو إيقادها للاهتداء بنورها أو الاستضاءة به كما كان يفعل ذلك في قديم الزمان. وقوله (ذهب الله بنورهم) المراد به الأعم من النور الظاهريّ الذي كان من إيقاد النار، والنور المعنويّ الذي هو الإسلام[١٨].

أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضيء، فما اتقدت حتى انطفأت، وتركته في ظلام دامس وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون[١٩] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾. (التوبة: ١٠٩).

كما نلاحظ الارتكاز على التشبيه التمثيليّ، ومقارنة صورة بصورة أو مشهد بمشهد. وهذا حقيقةً أفضل لخدمة المعنى المراد تثبيته في ذهن القارئ. إذ يؤدّي هذا التشبيه الذي قوامه الحركيّة إلى حركة تناظر فعله المتحقّق في ذهن المتلقي، عبر استضحار الصور والأخيلة، وإعمال الفكر والمنطق، والمحاكمة العقلية. وكلّ هذا يخدم الغاية الأساسيّة للصورة الفنيّة وهي التأثير والإقناع ويقوي أثر التشبيه القرآني.

ونعني بأثر التشبيه القرآني ما يمكن أن يضيفه التشبيه القرآني الكريم من صور بديعة تكسو المعنى المراد رونقاً وجمالاً فيكون وقعه في النفوس أبلغ وتأثيره في القلوب أكبر[٢٠] .

في هذه المقارنة الاستفسار المطروح (سؤال العارف) محسوم الإجابة، إذ من البديهيّ أنّ من يؤسّس بنيانه على دعائم الإيمان الصلبة لهو خير من ذلك الذي يؤسّسها على الضلال والكفر والشرك، وبذلك يكون حاله كمن أسّس لبنيانه، ووضع دعائم له على شفا جرف هار، متهوّر، منهار ينتهي به الحال إلى الانهيار، والسقوط في الجحيم. لاحظ حركيّة المشهد التي تبثّتها عناصره، ومدى قدرتها على استثارة الحواس عبر استحضار صور سمعيّة بصريّة لجرف ينهار، فيكاد المتلقي يراه عياناً، ويسمع صوت انهياره بإذنيه. كلّ هذا يصبّ في خدمة وظيفة الصورة الفنيّة المستخدمة بشقّيها الجماليّ والدينيّ الوعظيّ. فالمؤمن يبني على أساس صلب ومتين فلا يضيره إن هبّت عواصف، أو انجرفت تربة، أو فاضت سيول على نقيض الكافر الذي تعكس صورة بنيانه لأساساته على جرف هار، حالة عدم الاستقرار، والضعف، والتداعي، والسقوط المحتم عند أول طارئ.

ففي الآيات السابقة الذكر نلاحظ ما للحركة من فاعليّة كبيرة تمدّ الصورة بإيحائية تضفي على المعاني المزيد من الظلال. ففي التشبيه الأول نستطيع أن نحسّ بحركيّة العناصر على طول الأمد والمهلة التي تتضح من البؤرة الدلاليّة وهي (جنّة) و(آتت أكلها) فبين العنصرين مهلة زمنيّة، وحركة نموّ وتوالد. وفي التشبيه الثاني حركة من يستوقد النار، يستلزمها المعطى الحسي المقترن بالصورة من حركة للمشبه به، وحركة للنار، وتصاعد لهبها. وفي الثالث بنيان على شفا جرف هار، متهدم، ينهار ويسقط في الجحيم. كلّ هذا يحقّق الغاية المرجوّة من التشبيه، والصورة الفنيّة وهو

التأثير والإقناع. في حقيقة الأمر أنّ ((القرآن لا يقصد الاهتمام بالممثل به بقدر ما يهتم باقتراب الصورة في نفس الإنسان مع شدّة وضوحها وتأثرها))[٢١] .

لقد ترك التشبيه التأثير النفسي الواضح ، وطبع صورة وفكرة في وجدان المتلقي ، ورسمها بإشكال والوان ، أعطت قوة الشعور ويقضة الضمير وإتساع الرؤية والوضوح في تلك الصورة مما جعل المتلقي أكثر استيعابا وفهماً ، لتلك الصور التي رسمتها الآيات القرآنية[٢٢].

المبحث الثالث: التشبيه المرسل:

لغة : هو مأخوذ من الفعل الثلاثي (رسل) والذي يدل على الانبعاث والامتداد[٢٣] .

أمّا من الناحية الاصطلاحية فقد عرّفه الدكتور محمد حسين الصغير بقوله: هو ما اجتمعت فيه اركان التشبيه الاربعة [٢٤] .

ومن التشبيه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ الَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْنّارِ﴾(يونس:٢٧).

تشبيه مرسل مفصل أشار إليه البغوي بقوله: يغشاهم ذلّ وهوان لعقاب الله إيّاهم كأنّما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم[٢٥] .

إذاً يكرّر الخطاب الإلهيّ هذه الدلالة في مواضع عدّة ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة:٧٢). وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (الأنعام: ١٢٨)، ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(يونس:٨)، ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ (الحديد:١٥).

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ (العنكبوت: ٢٥)، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾،(السجدة:٢٠)، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾،(الجاثية: ٣٤) ، ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.(فصلت:٢٤)

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد:١٢)،﴿ نَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة:٧٢)، ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾(النور:٥٧)، ﴿وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ﴾(الرعد:١٨) ، ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.(النازعات:٣٩).

لاحظ إلحاح الخطاب الإلهي على الفكرة، وتكرارها في مواضع متفرقة، وآيات متنوعة. كلّ هذا هدفه التأكيد، والإلحاف على يقين المصير المحتوم، واقتران قطبيّ التشبيه في علاقة إسناديّة يلتحم فيها المعنى، فيغدو (الكفار) و(جهنم مأواهم) صنوان، يستحضران إلى الذهن عند استدعاء أحدهما تلقائياً. في مقابل هذه الصورة، أو الفكرة ،أو المشهد لا يغفل الخطاب الإلهيّ عن التذكير بالطرف المقابل، أو النقيض وهم أهل الجنة، ونعيمهم، وهم كذلك خالدين مستقرين فيها أبداً. قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣). ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(البروج:١١). ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(البينة: ٨). وغيرها كثير من الآيات التي تذكر بمصير المؤمنين، وما وعدوا به من جنات النعيم.

لقد أحدث القرآن توازناً بين رغبات النفس، وحاجات الجسم، ومتطلبات الروح، كما وتضمن سوره جمالات لا حصر لها، في الأسلوب، والنظم والتأليف، والصورة، وأنظمة الحياة المختلفة[٢٦]

فنلاحظ التشبية في الآيات السابقة قد أسهم في ارتباط وتلاحم المفاصل الاساسية مع الفكرة العامة التي تطرحها هذه الآيات بشكل دون اي يجعل اجزائها مرتبطة دون اي انفصال [٢٧] .

إذاً تمّ توظيف التشبيه توظيفاً فنيّاً ، حقّق غاية الخطاب الإلهيّ في الإقناع، والتأثير، والوعظ عبر الاستناد على ميزات التشبيه المتنوعة، وخاصّة الحركيّة في استحضار صور وأخيلة إلى ذهن المتلقي تكون أدعى لتأثّره، وانفعاله، واستجابته، وذلك لإشراكها حواسّه في المقاربات المنطقيّة، والمقارنات، والتشبيهات التي جمعت بين أطراف متباعدة ، وصهرتها في أتون صور موحّدة ، ترتكز على معان مشتركة يتقصّدها الخطاب، ويعمل على تقريب المعاني اللطيفة الروحيّة إلى إدراك المتلقي عبر ربطها في علاقات إسناديّة تركيبيّة مع جزئيات حسيّة تضمن انفعاليّته المطلوبة، وجذب انتباهه، عبر إقحام حواسّه في صور، تتنوع بين الحسيّة، والعقليّة، والمزيج بينهما.

ان مجيء التشبيه في الآيات القرآنية يُعد عنصرا مهما لِما يحمله من شحنات دلالية توجه عناية المتلقي لرصد هذه العلائق وما تؤدي به من التحول من المستوى الذهني للدلالة الى المتسوى الحسي او بالعكس. وهو ما يمكن اجماله واختصاره في الصورة التشبيهية[٢٨] .

الخاتمة:

على ضوء ما سبق توصل البحث إلى نتائج نوجز أهمّها في أن الخطاب القرآنيّ يرتكز على ألوان البيان الموظّفة توظيفاً استراتيجيّاً بشكل يمنح الخطاب فوق خصوصيّته تميّزاً مضاعفاً.

ونرى أنه تمّ توظيف التشبيه توظيفاً فنيّاً بديعاً، حقّق غاية الخطاب الإلهيّ في الإقناع، والتأثير والوعظ عبر الاستناد على ميزات التشبيه المتنوعة، وخاصّة الحركيّة في استحضار صور، وأخيلة إلى ذهن المتلقي تكون أدعى لتأثّره، وانفعاله، واستجابته ، فلقد كانت الأنسنة من ركيزات الخطاب الإلهيّ الأساسيّة في خطاب الجنة والنار، ويكثر الاتكاء عليها في مواطن مختلفة ، وإنّ خطاب الجنة والنار لايني يستند على الاستعارة، هذا اللون البيانيّ البديع والمبهر، فنراه يتردّد في مواضع مختلفة، يثري المعنى، ويراكم الدلالة، ويمتّع الذهن بفكّ الشيفرة، وكشف الغطاء عن نسب القربى، والمشاكلة بين طرفيّ الاستعارة التي جمعت بين أقطاب التشبيه في صياغة فنيّة جديدة. وفي الصور الفنيّة التي اعتمدها خطاب الجنة والنار لاحظنا عمليّة مهمّة، وهي نقل المعنويات في صور المحسوسات. وكذلك مفهومات عالم آخر مما لم تره عين بشريّة بعد. وحرص الخطاب الإلهيّ على أن يصف لنا بدقّة هذه المفهومات مستعيناً بما لنا من قدرات حسيّة، ومعطيات واقعيّة سبق وعايناها بالتجربة، فيمثّلها بما لنا قبل لفهمه.

ومما يلفت الانتباه في خطاب الجنة والنار أنّه غالباً ما يستند -إلى جانب البيان وألوانه- على الأسلوب التقريري المباشر وتكثر الآيات التي يصف فيها الجنة والنار وأحوال أصحابها والأحداث والحوار بينهم بلغة بسيطة تقريرية إخباريّة مباشرة .

الهوامش:

(١)أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم : د. محمد حسين علي الصّغير،ص١١

(٢) ينظر : لسان العرب ابن منظور ٥٠٣ – ٥٠٤–٥٠٥.

(٣)ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني: ٦/٣

(٤) ينظر : معجم مقاييس اللغة :لأبن فارس ،مادة(بلغ) ٣٩٢/٢

(٥) مفتاح العلوم : السكاكي ،٣٤٦ .

(٦) المصدر نفسه : والصفحه نفسها

(٧) العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني ،ص١٩٤.

(٨) ينظر الصناعتين : الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ٢٤٥/١.

(٩)ينظر الإيضاح في علوم البلاغة،القزويني،١٢١/١.

(١٠) ينظر : معجم مقاييس اللغة ، مادة(مثل) ٢٩٦/٥

(١١) مفتاح العلوم : السكاكي ،٣٤٦ .

(١٢)ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير – ابن أبي الحديد،ج١، ،٣٩٤.

(١٣)التصوير البياني في حماسة أبي تمام :٧٢

(١٤)التصوير البياني في حماسة أبي تمام ،٦٦

(١٥)المصدر نفسه :٧٢.

(١٦) ينظر : معجم مقاييس اللغة ، مادة(رسل) ٣٩٢/٢

(١٧) ينظر : أصول البيان العربي : ٦٤

(١٨)ينظر مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، ج١، ١٠٠-١٠١.

(١٩)صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ،٣٧.

(٢٠) فنون بلاغية البيان _ والبديع ، د. أحمد مطلوب ٢٩_٣٠

(٢١): ينظر التشبيهات القرآنية وأقرها في التفسير من أول سورة يونس إلى آخر سورة العنكبوت، أحمد بن سالم الشهري،، ٤٦.

(٢٢)الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش ،٣٨٤.

(٢٣)ينظر شرح السنة ، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ١٨٧

(٢٤)إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني : صلاح عبد الفتاح الخالدي،٣٥.

(٢٥)في النقد الأدبي، شوقي ضيف ،٨٥.

(٢٦)ينظر: البناءات الجمالية في النص القرآني، رائد مصباح الداية،٣.

(٢٧)ينظر: البعد الترابطي في القران الكريم.د. اقبال وافي نجم ص ٩٥.

(٢٨)ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، عبد العظيم المطعني ، ٢٨٠/٢

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان،٢٠٠٠، ط١.

٢. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٣م، ط٣.

٣. البعد الترابطي في القران الكريم. دراسة تفسيرية. د. اقبال وافي نجم. لعتبة الحسينية المقدسة. دار القران الكريم. شعبة البحوث والدراسات القرانية. رسالة دكتوراة. العراق كربلاء. ط ١ ،٢٠١٥ م، ٩٥.

٤. البناءات الجمالية في النص القرآني، رائد مصباح الداية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة،٢٠١١.

٥. التشبيهات القرآنية وأقرها في التفسير من أول سورة يونس إلى آخر سورة العنكبوت، أحمد بن سالم الشهري، رشالة ماجستير،جامعة أم القرى،المملكة العربية السعودية،٢٠٠٩م.

٦. التصوير البياني في حماسة أبي تمام – دراسة بلاغية تحليلية موازنة، عيسى بن صلاح الرحبي، أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية.

٧. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، عبد العظيم المطعني ، مكتبة وهبة _ القاهرة ، ط١ ،١٩٩٢م :٢/٢٨٠

٨. الدعوة الإسلامية،د.أحمد غلوش،دار الكتاب المصري– اللبناني،١٩٧٨، د.ط.

٩. شرح السنة، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي،٣ تحقيق: شعيب أرناؤوط–محمد زهير الشاويش،المكتب الإسلامي،دمشق–بيروت.

١٠. صفوة التفاسير،محمد علي الصابوني،دار القرآن الكريم،بيروت،١٩٨١،ط٤.

١١. العمدة في صناعة الشعر ونقده،ابن رشيق القيرواني، تحقيق،د.النبوي عبد الواحد شعلان مكتبة الخانجي،القاهرة،٢٠٠٠– ١٤٢٠هـ،ط١.

١٢. فنون بلاغيه البيان _ والبديع ، د. أحمد مطلوب ، دار البحوث اللعميه ط١ ١٩٧٥م، ٢٩_٣٠

١٣. في النقد الأدبي،شوقي ضيف،دار المعارف،القاهرة،١٩٩٣،ط٨.

١٤. لسان العرب،محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر، بيروت،١٤١٤هـ، ط٣.

١٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير – ابن أبي الحديد،ج١، تحقيق: أحمد الحوفي–بدوي طبانة،دار نهضة مصر،القاهرة،د.ت،د.ط.

١٦. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الآعلى الموسوي السبزواري،مؤسسة أهل البيت،بيروت–لبنان،ج١.